سيرة بني غازي: جولة في ارجاء مدينة اختفت (2 من 3)

لا أحد يحب مدينته كما يحب «البناغزة» مدينتهم ولكن عندما يسكرون يصبون جام غضبهم عليها!

مدينة تختفي خلف ملصقات اعلانات لدعايات مواد غذائية ورحلات حج وعمرة وأفلام قديمة مات أبطالها

أحمد الفيتوري*

«كنت مثاليا. فمنذ عودتي من مصر سنة 1957، وأنا أنظر إلى ليبيا نظرة تقديس. كنت أرى البشر فيها كآلهة الأولمب، لا يسقطون، وان سقطوا فسقطتهم تهز الأعماق، ويأتى بعدها التطهير المطلق ،، كنت أراهم مجردين من خطايا البشر. صدقني إذا قلت لك أنني كنت أنظر فأرى كناسا – مثلا – يكنس الشوارع فأود لو أجري مقبلايديه. صدقني أنني وصلت بنغازي ورأيت بيوتها مهدمة من أثر الحرب، ورأيت النفوس مطحونة ولكنها معاندة وصلبة، فأحسست وكأنني هبطت إلى مستقر أبطال طروادة».

عبدالله القويري

بنغازي هذا المساء نهد يخض حليب الركب

فيها أسوح وهي تصب غضبها على آل السياحة ومن يلطخ حيوطها، من حول عمدانها لعمدان مقابر: قبيلة آل القرنيط ينعون، قبائل بني قبح يعلنون، آل الفجيعة يبلغون: أن على من يعثر على صاحب هذه الصورة، أن يتصل بأول مركز علما بأن الضائع يلبس بدلة رياضية ويناهز من العمر رشادا.

أتخطى شارع بن موسى على يميني، تفوح في الذاكرة خمارة القوبو ما تحول، بعد منع الخمر في ليبيا، المصوراتي قبل أن أتعدى شارع «فياتورينو»، عمر بن الخطاب حاليا، لكن الأسم السابق درج، تشدني خيوط تنسل من ذاكرة ضاجة: هنا ترعرعت، تفوح سينما النهضة، هنا نهضت، ينبثق المسرح الحديث في مكان النهضة، هذه عباد الشمس المسرحية الاولى للمسرح الحديث، ولي مطلع السبعينات أول ما كتبت مسرحية شارع بوخمسين.. الخ، آخ.. قشعريرة باردة ناجمة عن الشعور بالخواء تنتابني: هذا كله دشن مدرس سيارات قبالة شارع جمال عبد الناصر حيث ثمة مدرس، في مكان الناقوس المدق أحس أن بنغازي ليست مدينتي، هذه من طبعها طابع ذاتي التدمير، وما أجد في هذا الوجد ملاذا يعتقني من عتاقة ذاكرتي البنغازية الطزاجة، غير أن العتق هو الحرية والعراقة والقدم كما تدل المادة في معجم لسان العرب على الجمال والنجابة، والسبق في الخيل ـ هل بنغازي من الموريات قدحا ؟ ـ، والشباب والصباحة في وجوه البنات، وعتاق الطير: الجوارح منها، والعتيق: الكريم الرائع من كل شيء، والعتق: الكرم والنضج، وغير لسان العرب أجدني ملوذا بالشعر في الصبر على الوطن قصيد عامر بن هشام القرطبي:

وإنما أسفي أني أهيم بها
وأن حظي منها حظ مغبون
يا لحظ كل غزال لست أملكه
يدنو ومالي حال منه تدنيني
ياليت لي عمر نوح في إقامتها
وأن مالي فيه كنز قارون

البقاء لله آل القصب ينعون فقيدهم من وافاه الاجل المحتوم.. «تشاركية العقل» للسفر والسياحة خبراء في تنظيم رحلات العمرة كذا تتلطخ المدينة بما يعزقون حيث ما كان، يدفنها بالورق صاحب السياحة الدينية، «أم الغزلان» للسفر والسياحة بمناسبة شهر رمضان المبارك تسير رحلات العمرة لسنا الوحيدين لكننا الأفضل، أقرأ هذا على الحيوط بين نتفة ونتفة في المدينة المحولة بفضل المقتدرين لمدفن، وأفكر بصوت عال أنتم الأفضل، ترمقني السابلة وأكتم وجعا عند: «الشامل للتدريب واللغات لساهمة جادة في نشر علوم الساعة وبفريق من المحترفين»، أبسمل الساعة والحاقة يا بنغازي كذا تنطق حيوطك المتخفية عنا بالورق: «أبولونيا وكيل معتمد المنظمة الدولية للطيران».

عن هذا وهذا يشدني مبنى المجمع الحكومي ما يستعيد نضارته مع ما يجرى فيه من صيانة، وأمد البصر فيعلو خارقا كبد المدينة داخلا في سباق مع تيبستي ومبنى الدعوة، تجذبني «مكتبة الفضيل» (الجربي للكتب الأجنبية سابقا) اجوسها في نظرة خاطفة ألح الشاعر محمد الشلطامي في الدواوين العشرة الصادرات مؤخرا، وغير ذاك ركام من طبخ وطبيخ، واتقاء القبر والسحر، وجلب الحظ وما تيسر مما يروج رجا، وما يروجه وراقة الزمان الجادون في عدم الجدية، وعند كل مكتبة / بنغازي لسان حالي:

وإنما أسفي أني أهيم بها
وأن حظي منها حظ مغبون

كل صراف بخيل، عند كل مصرف يخطر بالبال من أهل بنغازي من لم يستسلم لغواية بيع أرواحهم مقابل المال، عند مصرف ليبيا المركزي البناء ذي الطرز الاميركية / الوظيفية أذهلتني صدمة مفاجئة لاقتران المال بالشح والقبح، ليس ثمة وقت للنظافة، لذا هذا المصرف في شمال من صوبة الميناء ومصرف الوحدة «شمال أفريقيا سابقا» على يمينه سيلتقي مبانيها أعشاشا للعناكب وأخواتها، ولهواة تصوير الحشرات خير مكان، لكن دكاكين الكومبيوتر تنتزعني من المشهد وعلى شمالها المبنى الايطالي القديم ما تتوزع فيه محلات عدة أشهرها أقدمها مصوراتي الفلاح من زين ويزين هذه الاقواس بحلاق الفلاح أيضا، تنسى مقهي العصافير وطلوبة لست أنت ولا أنا مجايلها. عند المقهي أتبين حلقة قلادتها شاب هيبي يرتديه بنطال جنز وتي شرت أبيض، كأنه في عراك مع البرد فهو عائد في التو من صقيع هلسنكي، شعره أكرت منكوش، كأن زنوجة مندسة في سلالته البعيدة، أخاله الصادق النيهوم يرتد عن الجامعة معطيا بظهره لكل شيء و لا شيء، وأن مريديه من يشكلون الحلقة يستزيدونه، كانوا قبل وصباح كل سبت يصطفون للحصول على نسخة من العدد الاسبوعي من جريدة الحقيقة كي يقرأوا مقالته، أين تذهب هذا المساء:

«كتيب مسرحية قدمت في أثناء زيارة موسوليني لليبيا وقد حضرها بنفسه، الصورة الثانية خالد الفاضلي في مسرحية الدرس ليونسكو».

يشاع عن بنغازي ـ أم اليتامى ـ أنها مدينة الكساد، وأن الموتى يمشون في شوارعها في وضح النهار، ويشاع عنها أيضا أنها «غولة مدينة» لأن بنغازي الحقيقة ماتت مقتولة في الحرب.. والاشاعة بالطبع تتسرب الينا من مصادر الدعاية التي تهدف لخدمة الصهيونية والنوادي الليلة في أثينا على حساب غولتنا، ولكنها ـ للأسف ـ تلقى قبولا واسعا بين صفوف مواطنينا البسطاء حتى أنه تردد ـ بهدف الايحاء النفسي ـ أن أحد الأطفال الليبيين ولد مكفنا.. تلك الكذبة غير المعقولة التي لا تعني شيئا في الواقع سوى أن احدى مواطناتنا وقعت تحت تأثير الحرب النفسية وبدأت تخلط بين سجل المواليد وسجل الوفيات.. لكن بنغازي ليست مدينة مملة أعنى ليس إلى هذا الحد على الأقل.. وإذا كان المرء يسمع أحيانا عن حدوث بعض الخوارق في الأزقة الخلفية، أو خروج أحد الموتى من قبره المعترف به لكى يزاحم مواطنيه على صلاة الفجر، أو اصرار ملك الجن على احتلال أحد بيوت دكاكين حميد دون اذن من مصلحة الأملاك معتقدا أن الدنيا عندنا فوضى فإن ذلك لا يعنى شيئا في الواقع سوى أن بنغازي ـ التي تعتبرها الدعاية المضادة مدينة ميتة ـ ما تزال تعج بالحياة من تحت ومن فوق. هذا وجه الحق.. وتموت الدعاية المضادة بعد ذلك بغيظها، وتموت أثينا أيضا.. فأسطورة الكساد لا تستطيع أن تقف على قدميها في مدينة مثل بنغازي ينقلب عاليها سافلها ألف مرة كل يوم، ويستطيع المواطن فيها أن يجلس على عتبة الباب الجواني عاما كاملا وهو يتسلى بمشاهدة ملك الجن يتمرغ في الخرارة. أين تذهب هذا المساء: إذا تعب المواطن في بنغازي من الفرجة على الملك في فناء بيته، فإنه يستطيع ـ هكذا في غمضة عين ـ أن يستدير للجلوس على عتبة الباب البراني وينعم بمشاهدة غولة المنطقة التي تقف على أهبة الاستعداد لتلبية نداء المتفرجين في كل الأوقات. وسوف يكون بوسعه أن يرى جاره الميت يخرج للوضوء في الخربة المقابلة ويرى جاره الآخر يركض أمامه بدون رأس في غمرة تسرعه لتلبية النداء، ويرى «الحاجة امدللة» تشرب حصتها من النبيذ بعد سنوات الحرمان في دار الفناء. ويقضي عاما كاملا في الفرجة على أشباح المنطقة، ويقضي كل سهراته بالمجان وسط برنامج حافل تتضاءل بجانبه كل برامج النوادي الليلية في أثينا. ان ذلك لا يتوفر في أية مدينة أخرى، أعني حتى إذا دفع المرء وزنه ذهبا، فإنه لن يرى قط ما يراه مواطننا على عتبة الباب البراني في أي شارع في بنغازي، وإذا كانت بعض الأشباح تظهر أحيانا في بقية المدن الأخرى ـ وخاصة في أثينا ـ فإنها في الواقع لا تصلح للتسلية بأي حال، لأنها تظهر وتختفي في غمضة عين كأن وراءها ما يشغلها دائما، ثم إنها لا تظهر بدون رأس، أما عندنا في بنغازي فإن الأمر يختلف كلية، وكل أشباحنا ليس لديها ما يشغلها وكلها تخرج في جميع الأوقات وتتحدث معك وتنزع لك رؤوسها وتقول لك: بخ، وتصلي معك الفجر. وذلك بالطبع دون مقابل فميزة بنغازي عن بقية مدن العالم أنها مدينة لقضاء السهرة بالمجان.

الشاعر جيلاني طريبشان

أين تذهب هذا المساء: يستطيع المواطن في بنغازي أن يعرج في طريقه على سوق الظلام، وينعم بالظلام ومشاهدة أشباح الجنود الايطاليين الذين حصدتهم طائرات الحلفاء في الحرب الماضية، ويتبادل معهم الشتائم بشأن الاستعمار ويتمتع بالشماتة فيهم، ثم يذهب إلى شارع بوغولة بعد منتصف الليل، ويشق طريقه وسط الاشباح إلى المسجد نفسه الذي يصلي فيه صاحب الشارع دون رأس.. أعني إذا كان المواطن يرغب في متابعة السهرة.. أما إذا كان يملك ما يفعله في الصباح، فإنه يستطيع بالطبع أن يعود إلى بيته موقنا من أن بنغازي لن تحرمه من حصته على أي حال، وانه سيجد في الطريق ثمة من يخبطه بحجر على ظهره أو يتظاهر بالرغبة في اشعال سيجارته ثم يقول له: بخ !.

أين تذهب هذا المساء بعد أن هدم سوق الظلام، ما بناه الترك على شكل محلات مقوسة في ممر طويل مسقوف، تتفرع عنه ممرات قصيرة، حافلة بأسواق أصغر مختصة بين الذهب والحلى المحلية من سنيبرة ودملج وبين عطارة الدهر: ميدان السلفيوم قبالة قصر المدينة الذي من منارته اعلن استقلال البلاد، الجامعة الليبية، معهد الإدارة حاليا، مدرج رفيق مهرجان المدينة الثقافي، ميدان السلفيوم ما سماه جيلنا ميدان البيكاديلي:

تفتش في ذكريات الليالي الطويلات / هل كنت أنا حقا ذلك المارد المتدفق بالأمنيات/ أيها الشعر: أسألك الآن / كيف تخبو الأماني الصغيرات / هل ذبلت زهرة القلب /أيها الشعر:آه... لو جئتني / قبل هذا السكون / حين كان القميص مشجرا.

هكذا ينطق عنى صديقكم الراحل جيلاني طريبشان، يلفني صمت، نبت في مكاني لا أتزحزح، في قبضة الكرب التالي لليقظة.

الكاتب الصادق النيهوم

نبات السلفيوم أسطورة أثينا أفريقيا، قورينا: عند ذكر انها شحات حاليا، جال بخاطري أنها كذلك مجلة الجامعة الليبية حين كنت ذلك المارد المدجج بالامنيات، نبات السلفيوم دواء كل داء أو كما تذكر أساطير اغريق ليبيا، ومنحوتة زهرة السلفيوم محطوطة على مسلة باليدان ـ قبل أن تسرق ويوضع مكانها منحوتة فالصو / مزورة ـ قبالة الجامعة، حيث في المبنى أرقب بنات بنغازي زرافات زهر: نرقب مجيء من يعدن للبيت عقب انتهاء دروس الادارة الليلية. مبنى الجامعة تحولات الكائن.

أترك مصرف الجمهورية «بنك باركليز» سابقا عن يمين وعمارة كانون عن شمال، اندلف في حديقة المجمع الاداري، ميدان الملح يوم كانت بنغازي تدعى كوية الملح، الحديقة غائصة في ظلمة مسرح المجاهد ينيرها، سينما الزني؛ ركس مثل أختها غصت بالأفلام القديمة كذا الفعل الوخيم المحتوم، مدخل قاعة المجاهد يغص بمحل للمشروبات كما يغص بالاعلانات ولوحة اعلاناتها ثملة تتعتع بصور وملصقات، غير ذلك من قبالة فندق عمر الخيام المجانب مسرح المجاهد تصم الآذان أغان لفرقة شعبية تحيي ليالي رمضان، في كباريه دون كحول زاهية بنغازي بهذا الترياق لعذابات الروح في غناء ورقص حلال، الاغاني التي تتردد في هذا الكباريه هي أغاني الوردة الليبية الفونشة المطربة الشعبية المتحجبة بالبيوت الخاصة، حيث تحيي حفلات الاعراس.

يدفع البعض ليحصل على تذكرة «عروس البحر» ندخل دون حاجة لدفع الثمن، جماعة المدينة : فرقة أنوار المدينة، أصدقاؤنا الباشون يرحبون بنا، فيما سالم العوكلي يكتب: يحاول علي بحيري في أعماله المسرحية أن يقترب من شجون الشخصيات الشعبية التي تحاصرها إخفاقات الحياة اليومية، الشخصيات الهامشية المشحونة بأسئلة الواقع المضاد والملاحقة من قبل مآزقها الداخلية المدفوعة بغموض الخارج والتباسه. في مسرحية «عروس البحر» يلقي بشخصياته الهامشية على شاطئ البحر في علاقتها العبثية معه. وسيصبح الأداء الملفوظ هو الأساس في بنية هذه العلاقة التي تكتفي بدورانها في هذا الحيز المكاني والزماني الضيق .. ومن ثم دورانها داخل مجموعة من المنولجات التي تتقاطع في مناطق السخرية المتبادلة .. شخصيات معاقة في مواجهة بحر محايد.

تبدأ من حالة متصاعدة لجلد الذات المتعلقة بأوهامها إلى روح التهكم على أبنية الثقافة المزدراة، وعلى خطابات الشعر المتنطع بقول الذات في أوج فخارها .. وبمجرد دخول عروس البحر إلى الخشبة لتنعش وتيرة العمل، ومن ثم لتكون قناعا لمرسله الخجول بصدد ما يتعرض له الإنسان من تشوه وارتداد إلى غرائزه الأولى.

هنا يحضر البحر كما في الذاكرة الليبية إلى مصدر أبدي للتشوه وللكائن المسوخ، ومن هو البحر الذي ارتبط بكونه دربا للغزاة، حيث تطرح مسألة الآخر بوجهها التقليدي وبدون الدخول بها إلى مناطق أخرى للمعرفة أو السؤال .. الذوات المتجذرة في العاهة والغائبة عن الوعي في مقابل بحر لا يجود سوى بالمسوخ والأحذية. وبالتالي سيكون الآخر المبهر في لا وعي المعالجة الآخر الغربي .. الهادي والمرتب والنظيف في يقظة الكتابة هو المسؤول عن تشوه هذه الذوات.

في هذا العمل كان النص لعلي بحيري كذا الاخراج سيد اللعبة، ومن ثم الممثل منصور العيساوي، محمد الأمين، أحمد بوفردة، ميلود العمروني، مع مريم العجيلي، مع حرفية إخراجية حافظت على مستوى الإيقاع المسرحي إلى نهايته، وبقدر ما كان هذا العمل ممتعا إلا أنه يقف دون التجريب، فبقدر ما يكون الملفوظ مهيمنا والسنوغرافيا خرساء بقدر ما يبتعد عن فكرة التجريب التي تحتاج إلى وضع كل المفردات المسرحية في حقل الاختبار، المناظر والموسيقى والإضاءة والملابس كانت خارج اللعبة، واكتفت بكونها رديفا للنص المسيطر الذي كان يسعى إلى المتعة لا إلى الانعاش، اضافة إلى بعض الإجابات التي تخللت العمل وكسرت من تلقائية نموه الدرامي ومن أسئلته الموارية.

وسيظل لمسرح بحيري سمته الخاصة التي تضيف نوعية لمسيرة المسرح الليبي.

لوحة شهيرة للفنان عوض عبيدة

نترك معتكف سالم العوكلي عنا مندفعين مغبوطين ضاجين بضحك غامر اجتاح نفوس النظارة وتصفيق حار يشعل أكفنا، لم نلتفت لما جرى لقاعة المجاهد التي طالها مفرق اللذات فعل الزمان نالها بالإهمال وما على منواله. طالعون عن المكان بمزاج رائق وروح حية إلى معترك شارع جمال عبد الناصر عند منتصف ليلة من ليالي بنغازي الاستثنائية، للقاء في مقهى المنتدى الإذاعي بالأصدقاء لنكمل السهرة وبقية ما يتيسر من هذه الليلة.

أعرج على الشمال دائما صوب صهوة البحر ميناء بنغازي، محاذيا فندق عمر الخيام على يميني الحديقة وقدامي سينما برنتيشي سينما بنغازي، في اليسار يمتد لسان شارع عمر المختار ليداعب البحر عند كورنيش المدينة حيث تغطينا الظلمة ونتبين مبنى الكاتدرائية، يتلاطم موج رذاذه يستنهض الروح: سيكون ما يحدث في لحظة غارقة في المستقبل هو سبب ما يقع هنا والآن ..

قصعة المدينة .. بياصا كاني!
ميدان 9 آب «السلفيوم»

من ظلم كمولود تخرج، فتعيد المدينة مولدها ضاوية قبيل ميدانها الأبرز، صرتها، حلمتها ما يحب أن يرضعه ساكنوها في اليوم مرة على الأقل فإنه لزوم ما لا يلزم: ميدان الشجرة، بياصا كاني، ميدان عمر طمسون، ميدان الخالصة، لكن ناسه خلص لميدانهم المخلص لما عمدوه به من اسم، نعت، وصف، هوية وعرض حال، ميدان الشجرة تحب أو تكره، تموت الشجرة وتبقى حرة في تضاريس الذاكرة كوشم لا يزول، وأحب أو أكره هذا الممشى ما أستغرق بين التاسعة والربع والعاشرة من مساء كل ليلة.

كل يصب في هذه القصعة الصغيرة التي ضاقت بما وسعت، كريم ميدان الشجرة، بضيق ذات اليد بصدر رحب، كعبة طقس مساء كل اليوم وعصرها ميدان الحوت والحوت والصبارص عليهما أو كما يقول مثل شعبي.

من يحب مدينته كما يحب البناغزة مدينتهم ؟ .. هم يحبونها حتى الثمالة، وفي سكرهم يصبون جام غضبهم عليها لهذا يطوفون كل رمضان بين الشجرة والحوت، في عراك، يتداعكون، يخطون ويلوحون، يعربدون، يحششون، يتنابزون. وحيطه يحط في ميدان الشجرة علامة، أيقونة تهكمها وتهتكها وتزمتها وتعصب أهلها لها وهي عصبهم.

عن الميدان غاب مقهى الرياضي الشهيرة ووقف كاتبه خليفة الفاخري هذا المخلوق يسكن في أحد الفنادق في بنغازي الضيقة الصدر، وكانت غرفته لا تحتوي سوى على آلة كاتبة، وحزمة من الورق، ومنفضة سجائر، وبعض الأثاث القديم، وكان صامتا طول الوقت، ولكن عندما يطول الليل إلى حد تتمنى أن تحكي فيه لأحد ما، تنبعث ـ عبر الصمت ـ أصوات الحروف فوق الآلة الكاتبة، ممزقة سكون الليل، وأحلام النزلاء في الغرف المجاورة. وطفق الرواد يشتكون بلا انقطاع، لأنهم يريدون أن يحلموا فقط، على حين ظل يواصل حكاياته لآلته الكاتبة، شاعرا بصداقة الحروف التي ستقبل ذات يوم عيون الآخرين المستغرقة الآن في نوم عميق، ولم يعد أمامه سوى أن يغير غرفته في نفس الفندق .. وتكررت الشكوى، وتكرر تغيير الغرفة، بينما لم يحدث أي تبدل في مسلكه سوى أنه اكتشف حقيقة بالغة الأهمية هي أن الغرف كلها واحدة سواء في الفنادق أو منازل الأهل أو الأصدقاء، أو حتى في البيوت المهجورة هناك، في أقصى الأرياف، أثناء رحلة ما، الشيء الوحيد الذي يتغير هو الانسان نفسه. فعندما تفتح عينيك في الصباح في غرفة جديدة، تشعر فجأة بالذهول، وتحاول أن تتذكر جيدا، في لحظات استيقاظك الأولى، أين نمت ليلة البارحة، محاولا أن تتعرف على الجدران، الاثاث، وجهة النافذة أو مكان الباب، إلى أن تكتشف أنك نمت في غرفة أخرى أو منزل آخر، وليس في حجرتك المعتادة. ذلك المخلوق لم يعد يعتاده هذا الشعور، لم يعد يشعر بالحيرة حين يستيقظ، ذلك أنه أدرك أن السقف واحد، وأن الأرض واحدة، وأن الانسان وحده هو الذي يضع الفروق بين الغرف والمنازل والمدن، وبين البشر كذلك. حين تهب ريح القبلي في بنغازي، استرسل خليفة الفاخري في حكيه، بنغازي الضيقة الصدر، تصبح وجوه الناس حالكة كالحة .. وحين ينهمر المطر يكسوها شعور غامر بالاستياء، لأن الكثيرين لا يفكرون إلا في الغدران التي ستملأ الطرقات. ولكن انسانا ما، في مكان ما، يظل جذلا عبر انهمار المطر، مفكرا فقط في موسم الحصاد. فيما تقف أنت خلف النافذة، في الغرفة 211، رانيا إلى عروق المطر فوق الزجاج، منصتا بين حين وآخر إلى أولى الأصوات المنبعثة في المدينة عند الفجر، إلى صياح الديكة، ونباح الكلاب عبر السكون، حالما بأن المطر قد غسل المدينة الآن، والناس ... وجعلهم طيبين تماما. انك تنظر، وتسمع، وتحلم، مدركا، اثر انحباس المطر، ان الشمس ستنهض بعد قليل، وأن عليك أن تنهض أنت أيضا لكي تسعى في أرض الله. وتقول الحكاية الحادية عشرة .. ما أبعد الطريق!.

الشاعر جيلاني طريبشان

الكاتب الصادق النيهوم

من سوق الظلام

لوحة عادل جربوع

* كاتب واديب ليبي